تأملات فى سورة النازعات

بقلم الدكتور حسن محمد باجودة

مقدم

هذه دراسة متأملة للسورة الكريمة « النازعات » وهى بعنوان « تاملات فى سورة النازعات » .

وقد أخذت الدراسة فى الاعتبار عددا من المسائل منها :

١ ــ السياق والترابط المعنوى بين آيات القسم الواحد وبين أقسام السورة الثمانية . وقد تبين أن قضية البعث بعد الموت : هى المحور الذى تدور حوله السورة الكريمة .

٢ ــ بما أن القرآن الكريم يتجلى فيه دائما وأبدا التوازن العجيب بين القدرة على ارضاء العقل بفصوص حكم المعانى واشباع النفس بجميل تركيب المبانى ، لذا كان فى دراستنا ميل « واضح » لاعطاء ظاهرة التلاؤم الصوتى حظها . وقد تجلت هذه الظاهرة فى أشكال متعددة . وبما أن اعتمادنا على المقاطع الصوتية كان كبيرا ، فانا نود أن نعطى فكرة سريعة عن هذه المقاطع . انها ثلاثة ، قصير ومتوسط وطويل . أما القصير فهو عبارة عن حركة . وأما المتوسط فهو عبارة عن حركة فسكون . وأما الطويل فهو عبارة عن حركة فسكونين . ومن هنا يتبين أن كل مقطع صوتى ، ينبغى أن يبدأ بحرف متحرك .

٣ ــ ومن أهم ما روعى فى أثناء الدراسة ، الطبيعة الاشتقاقية للغة العربية . تلك الطبيعة المسعفة على الوصول الى المعنى المقصود . وقد تجلى ذلك بصورة واضحة ، فى أثناء دراسة لفظة الحافرة التى جرت على لسان كفار مكة فى قوله تعالى : « أئنا لمردودون فى الحافرة » وقد تبين أن دراسة حياة العرب قبل الاسلام أمر مهم فى سبيل فهم كل من القرآن الكريم والحديث الشريف ودراستهما دراسة بيانية .

وأقول عن هذه الدراسة المتواضعة ، ماقلته عن كل الدراسات السابقة ، للسور التالية ، يوسف ، مريم ، يس ، الاسراء ، الفرقان ، العاديات : انى أشهد الله الذى لا اله الا هو : انى لم أشأ وقتا من الأوقات ، أن أحمل حرفا واحدا من كتاب الله تعالى فوق ما يحتمل . ومن كان له على هذا العمل أى ملاحظة ، فلا يتردد فى اعلانها ، فالحق احق أن يتبع .

وفى الختام أسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدينا الى أقوم سبيل ، وأن يعفو عما بدر منا من تقصير ، وأن يتقبل منا صالح الأعمال ، أنه سميع مجيب . وصلى الله وسلم على رسوله وحبيبه محمد الأمين ، والحمد لله رب العالمين .

سورة النازعات مكية(١) وآياتها ست وأربعون(٢) وحروفها سبعمائة وثلاثون . وكلها مائة وسبعون (٣) .

وفى امكاننا أن نقسم السورة من حيث الوحدات المعنوية التى تعرض لها الى الأقسام الثمانية التالية .

---

(١) الاتقان ١١/١ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ، مطبوع بهامش الطبرى ١٣/٣٠ .

(٢) جاء فى تفسير غرائب القرآن أن عدد الآيات خمسون . ومثل هذا الرأى يعتمد على اعتبار بعض الآيات التى تميل الى الطول النسبى والتى تشتمل الواحدة على فكرتين متميزتين آيتين وليس آية واحدة كهذه الآية الكريمة مثلا « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » .

(٣) غرائب القرآن ١٣/٣٠ .

١ ــ « والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا » الآيات ١ ــ ٥ .

٢ ــ « يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة » الآيات ٦ ــ ٩ أربع آيات .

٣ ــ « يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاما نخرة . قالوا تلك اذن كرة خاسرة » الآيات ١٠ ــ ١٢ ثلاث آيات .

٤ ــ « فانما هى زجرة واحدة . فاذا هم بالساهرة » . الآية ١٣ ، ١٤ آيتان .

٥ ــ « هل أتاك حديث موسى . اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب الى فرعون انه طغى . فقل هل لك الى أن تزكى . واهديك الى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى » الآيات ١٥ ــ ٢٦ اثنتا عشرة آية .

٦ ــ « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم » .

الآيات ٢٧ ــ ٣٣ سبع آيات .

٧ ــ « فاذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الانسان ما سعى . وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فان الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المأوى » .

الآيات ٣٤ ــ ٤١ ثمان آيات .

٨ ــ « يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها . الى ربك منتهاها . انما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها » .

الآيات ٤٢ ــ ٤٦ خمس آيات .

عرض سريع للسورة :

أقسمت السورة الكريمة ابتداء بالنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا . أما جواب القسم فمحذوف تقديره لتبعثن . واذا قبلنا رأى جمهور العلماء بأن القول «والنازعات غرقا » معناه : أقسم بالملائكة التى تنزع أرواح الكافرين ساعة الموت بشدة وعنف ، وتبينا أن جواب القسم « لتبعثن » محذوف ، لأنه مفهوم ضمنا ، استطعنا أن ندرك لأول وهلة التجانس بين مطلع السورة الكريمة وبين هدف من أهم أهدافها وهو قضية البعث بعد الموت.

بل انا لا نكاد نغالى فى قليل أو كثير حينما نقول: ان قضية البعث بعد الموت عبارة عن المحور الذى تدور حوله السورة الكريمة ، والهدف الذى تسعى الى تقريره وتقريبه الى الأذهان كى يصدق به المكذبون وكى يستعد له الجميع .

ما أقرب الشقة بين الموت وبين البعث . فليس ببعيد عن أذهاننا القول : من مات قامت قيامته . ومن قدر له أن يكون موجودا وقت النفخة الأولى التى تميت بارادة الله تعالى كل شىء ، فما أصدق القول السابق فى حقه ، خاصة وأن بين هذه النفخة الأولى وبين النفخة الثانية التى تحيى بارادة الله تعالى كل شىء ، كما جاء فى الحديث أربعين ، رجح البعض أنها أربعون سنة . ان القسم الثانى من السورة ، يتحدث عن هاتين النفختين قال تعالى : « يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة » . ويبدو بوضوح الزاوية التى تنظر منها الآيات انها الزاوية التى تتمشى مع القوم الكافرين ، الذين يوجه اليهم الحديث بالدرجة الأولى فى هذه السورة الكريمة التى تعنى بأسس العقيدة . واكبر دليل على ذلك أن القسم الثالث يتحدث عن موقف هؤلاء الكافرين يوم القيامة . انه موقف المنكر المستهزىء . قال تعالى : « يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاما نخرة . قالوا تلك اذن كرة خاسرة » .

ومن مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن يمهل ولا يهمل ، وأن يضرب للكافرين المثل تلو المثل، كى يأخذوا العظة والعبرة . لذا تختار السورة الكريمة فى القسم التالى موقف طاغية من الطغاة عبر التاريخ . انه فرعون مصر ، الذى أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر « ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب »(١) بعد أن قامت عليه الحجة البينة . ان كفار مكة لا يستطيعون أن يزعموا أنهم أشد قوة وأكثر مالا من فرعون مصر ، وان انتقام الله تعالى من فرعون ، معناه أنهم ، على أحسن الفروض ، فى مثل هوان فرعون الطاغية . لقد كان الأولى بهم أن يأخذوا العظة والعبرة . ولكن بما أن مستوى القوم الفكرى دون المطلوب ، لذ هم ينكرون أن تكون ثمة القدرة القادرة على اعادة الحياة لهم مرة ثانية . انهم لو حكموا عقولهم بانصاف واعتدال ، لا نتهوا الى أن خالقهم من العدم قادر على اعادة الحياة اليهم . ونقول بمنطق القوم : ان اعادة العمل أسهل من ابتدائه، مع أن الأعمال كلها سواء فى حقه عز وجل .

---

(١) غافر : ٤٦ .

وكيف ينكر القوم قدرة الله تعالى المطلقة ، وان اقل قدر من التفكير السليم ينتهى الى أن خلق السماوات والأرض ، التى يعترفون بأن الله تعالى خالقها ، أكبر من خلق الناس ، وينتهى بالتالى الى أن اعادة الحياة اليهم عمل غاية فى البساطة والهوان فى حقه عز وجل . لقد كان الأولى بكفار مكة الا ينكروا يوم القيامة والا يستهزئوا به بل أن يؤمنوا بوجوده ويعدوا العدة له . ان هذا الهدف ، الذى هو هدف السورة ، قد عناه تحول الآيات الى الأشد طغيانا فى مجال البشر ، أعنى فرعون مصر . والأشد قوة فى مجال المادة ، أعنى السماوات والأرض .

أما وقد تهيأت كل نفس لأن تفهم ان اعادة الخلق هين فى حقه عز وجل ، فقد تحول السياق الى يوم القيامة ، الى الطامة الكبرى التى تطم كل النوازل والدواهى وتفوقها .. وواضح ان الحديث عن يوم القيامة من هذه الزاوية بالذات، راعى طبيعة موقف المعنيين بالحديث اساسا وهم كفار مكة . وان التفاصيل تؤيد هذه النظرة حيث أن الحديث عن جهنم وأهلها أكثر من الحديث عن الجنة وأهلها . بحيث أنا نستطيع أن نقول: ان ست وحدات صوتية تتحدث عن جهنم وأهلها، وثلاث وحدات صوتية فى آيتين من ثمانى آيات تتحدث عمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فكانت الجنة مأواه . قال تعالى : «فاذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الانسان ما سعى . وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فان الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المأوى » .

وحيث أن محور السورة هو البعث بعد الموت فقد ختمت السورة الكريمة بتبيين الموقف الصحيح الذى ينبغى للناس أن يقفوه من ذلك اليوم بأن يستعدوا له ، لا أن يسألوا عن موعد ذلك اليوم ، تحدوهم دوافع شتى من استهزاء وانكار وتعجب وتكذيب وفضول وما الى ذلك . ان مثل هذا السؤال ، مهما كان الدافع اليه غير نافع . انما الشىء النافع ، هو العمل الصالح كى يثاب عليه الانسان يوم الجزاء والا فان الحساب عسير والعقاب اليم . ووقتها يوقن الانسان المنكر لحقيقة البعث والذى لم يعد العدة لذلك اليوم العظيم بسبب انكاره ، تفاهة تلك الحياة الدنيا التى لم يكن يوجه سيره فيها الهدف السامى الذى خلق من أجله ، ولا العقبة الكأداء التى عليه أن يتخطاها . لقد تكشفت الدنيا على حقيقتها لذلك الكافر ، فهى ليست أكثر من حلم من الأحلام ، وسحاب كهام . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، انما تجاوزه الى كون ذلك الكافر معاقبا على كل أعماله السيئة التى قام بها فى حياته الدنيا وفى مقدمتها انكار يوم القيامة والاستهزاء به . قال تعالى عن هؤلاء القوم : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها » .

من العرض السابق يتبين أن المحور الذى تدور حوله السورة الكريمة هو قضية البعث بعد الموت ، وأن السورة الكريمة ابتدأت بما يؤدى اليه وهو الموت وسجلت أهم معالمه البارزة من نفخة أولى تميت بارادة الله تعالى كل شىء . ونفخة ثانية تحيى بارادة الله تعالى كل شىء ، ويصحبها الصيحة التى يجتمع أثرها الخلائق لفصل الحساب ويتجهون بعد ذلك اما الى الجنة أو النار . وان كل ما تخلل هذه المعالم البارزة ليوم القيامة يهدف الى حمل كل انسان على اعداد العدة لذلك اليوم المجموع له الناس المشهود .

الدراسة المتأملة :

القسم الأول : قال تعالى : « والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا » .

من الواضح أن هذا القسم يتكون من خمس آيات ، ذات نغمة صوتية واحدة تقريبا . اذ تتكون كل من الآيات الأربع الأول ، من سبعة مقاطع صوتية تتفق فى كل شىء . أما الآية الخامسة . فبالاضافة الى اشتمالها على ذات المقاطع السبعة ، فانها تزيد بمقطع صوتى قصير ، عبارة عن حركة واحدة . ويجىء هذا المقطع فى العد ثانيا ، وهذا يعنى أن الانتقال غير بعيد بين النغمتين ، وان الاتفاق فى الناحية الصوتية بين الآيات الأربع الاول ، يمكن أن يفهم منه أن وجهة الكلام فى الآيات واحدة . وان انفراد الآية الخامسة بزيادة مقطع قصير من شأنه أن يحدث فى النغمة اختلافا بسيطا ، وبالتالى تنفرد هذه الآية بقدرتها على الأشعار بأنه ربما تحولت نغمة الكلام قريبا وجهة أخرى. وهذا ماحدث فعلا . واللطيف فى الأمر أن أولى آيات القسم الثانى تتكون من ثمانية مقاطع على غرار عدد المقاطع الصوتية الذى انفردت به الآية الأخيرة فى القسم الأول . واللطيف فى الأمر أيضا أنه اذا كان قد نجم عن زيادة المقطع القصير فى الآية الخامسة ، كون المقاطع الثمانية ذات ترتيب مخالف لما سبق وبالتالى ذات نغمة متميزة ، فان بين هذه النغمة المتميزة فى هذه الآية وبين النغمة فى أولى آيات القسم الثانى تشابها فى الخمسة المقاطع الأول من المقاطع الثمانية فى كل من الآيتين . وان هذا التشابه بين النغمتين معمق للعلاقة المعنوية الوثيقة بين القسمين على نحو ما مر بنا من قبل .

وحيث ان بين العلماء اختلافا كبيرا جدا بشأن تحديد المعنى المراد بالآيات الأربع الأول ، وحيث أن ثمة اتفاقا بينهم أو شبه اتفاق(١) بأن المراد بقوله تعالى : « فالمدبرات أمرا » الملائكة التى تدبر بأمره عز وجل الأمر من السماء الى الأرض. فهل فى الامكان ، انطلاقا من هذا الاتفاق بين العلماء بشأن الآية الخامسة واعتمادا على أدلة أخرى ، أن ننتهى الى ترجيح رأى بعينه ومعنى مشترك بأنه ، والله تعالى أعلم ، هو المقصود بقوله تعالى : « والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . والسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا » هذا ما سنحاول ، باذنه تعالى أن نقوم به . وهذه هى خطواتنا التى تبدأ من أوضحها . ومن البديهى أن أوضح الخطوات تبدأ من الآية الخامسة التى اتفق العلماء بشأنها تقريبا . واللطيف فى الأمر أن ابتداءنا من الآية الأخيرة ، له القدرة على حمل اتجاهنا أن يكون عكسيا دائما ، ينتقل من الآية اللاحقة الى السابقة وهكذا .

لاحظنا ان العلماء اتفقوا بشأن الآية الخامسة، على أن المراد بها الملائكة التى تدبر الأمر من السماء الى الأرض بأمر ربها . فما الذى يلفت الانتباه بشأن هذه الآية الكريمة واضحة المعنى « فالمدبرات أمرا » ؟ الذى يلفت الانتباه انها هى والآية السابقة عليها « فالسابقات سبقا » تنفردان بالابتداء بالفاء . وحيث أن الآية الخامسة معطوفة بالفاء على سابقتها المبتدئة بالفاء ، وحيث أن الآية الخامسة متعلقة بالملائكة ، فمعنى هذا أن الرأى وجيه ذلك الذى يذهب الى أن المراد بقوله تعالى : «فالسابقات سبقا » هم الملائكة . فمثلا قال الحسن : سبقت الى الايمان والتصديق به(٢) وقال مجاهد : الملائكة سبقت بنى آدم بالخير والعمل الصالح(٣) .

ويبقى بعد ذلك سؤال هو : وهل فى الامكان أن نربط من الناحية المعنوية بين الآية الرابعة هذه المبتدئة بالفاء على غير مثال سابق « فالسابقات سبقا » وبين الآية الثالثة المبتدئة بالواو « والسابحات سبحا » ؟ الحقيقة أن القرطبى جاء برأى عظيم للجرجانى حيث يقول(٤) : « وقال الجرجانى : ذكر فالسابقات بالفاء لأنها مشتقة من التى قبلها . اى واللائى يسبحن فيسبقن . نقول : قام فذهب . فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب . ولو قلت: قام وذهب ، لم يكن القيام سببا للذهاب » . ان هذه اللفتة البارعة من الجرجانى تعنى أن قوله تعالى : « والسابحات سبحا » متعلق بالملائكة ايضا ، وهو المعنى الذى نعتقد — والله تعالى اعلم — أن الآية الكريمة تعنيه . قال على ومجاهد : الملائكة تتصرف فى الآفاق بأمر الله ، تجىء وتذهب(٥) وكأن مجاهدا كان يرى أن نزول الملائكة من السماء سباحة ، كما يقال للفرس الجواد انه لسابح اذا مر يسرع(٦) وقال مجاهد وأبو صالح : هى الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله ، كما يقال للفرس الجواد سابح اذا اسرع فى جريه ، وعن مجاهد ايضا : الملائكة تسبح فى نزولها وصعودها(٧) .

فاذا تحولنا الى الآية السابقة تبينا أنها تصاغ على غرار الآيتين التاليتين ، الثالثة والرابعة ، حيث أن كلا تتكون من اسم الفاعل من الثلاثى فمصدر . قال تعالى : « والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا » . وقد نجم من ذلك تلاؤم صوتى لا يقف عند حدود الاتفاق بين الآيات فى عدد مقاطع الآية ، وموافقة صدور الآيات صوتيا ، وموافقة اعجازها ، انما يتجاوز كل ذلك الى كون الحروف فى صدر الآية وعجزها من أسرة واحدة، اذ لا تخرج حروف العجز عما جاء فى الصدر . وسبق أن لاحظنا دور الفاء فى الآيتين الأخيرتين فى توجيه المعنى وجهة معينة ، وفى الربط بين ما سبق الفاء وبين ما تلاها . وقد نجم من ذلك تقدم الرأى الذى ذهب اليه جمهور العلماء على غيره من الآراء . وحيث أن الآية الثانية قد جاءت فى ذات الصيغة التى جاءت فيها الآيتان الثالثة والرابعة التى ذهب الجمهور الى أنها تعنى الملائكة التى تسبح بين السماء والأرض وتسبق الى ما أمرها الله تعالى به سبقا ، كى تدبر بارادته عز وجل الأمور ، فان فى امكاننا أن ننتهى ، مستفيدين من الاتجاه الواحد فى صياغة الآيات الثلاث الى أن الآية الثانية تتعلق بذات الملائكة الذين شملتهم الآيات التالية فى القسم . وهذا هو الرأى الذى ذهب اليه جمهور العلماء كذلك . فقالوا ان الآية الكريمة تتحدث عن الطريقة الهينة اللينة التى تستل معها الملائكة أرواح المؤمنين المتقين . قال ابن عباس: يعنى الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير اذا حل عنه(٨) والنشط : الجذب بسرعة ، ومنه الأنشوطة ، عقدة يسهل انحلالها اذا جذبت مثل عقدة التكة(٩) .

---

(١) أشار مثلا القرطبى ص ٦٩٨٥ الى الخلاف الذى يكاد يكون وحيدا .
(٢) تفسير ابن كثير ، ٤٦٦/٤ .
(٣) البحر المحيط ، ٤١٩/٨ .
(٤) تفسير القرطبى ص ٦٩٨٥ .
(٥) البحر المحيط ٤١٩/٨ .
(٦) تفسير الطبرى ٢٠/٣٠ .
(٧) تفسير القرطبى ص ٦٩٨٤ .
(٨) تفسير القرطبى ص ٦٩٨٢ .
(٩) تفسير القرطبى ٦٩٨٢ واللسان « نشط » .

وقد يقول قائل : أن اسم الفاعل ناشط فى الآية الكريمة من الفعل نشط ، وان القول نشطا من الفعل ذاته الذى يفيد الربط وليس الحل ، فقد جاء فى اللسان(١) القول : وانشطت الحبل اى مددته حتى ينحل . ونشطت الحبل انشطة نشطا ربطته . واذا حللته فقد انشطته . ونشطه بالنشاط اى عقده ، وهلا كانت الآية الكريمة بناء على ذلك ترتبط بالشبد لا بالحل ، بنزع أرواح الكافرين مثلا لا بسل أرواح المؤمنين والجواب على ذلك بالنفى من وجهين .

الأول : هو أن من العلماء من ذهب الى ان نشط بمعنى أنشط(٢) وزاد القرطبى(٣) بأنهما « لغتان بمعنى . وعليه يصح قول ابن عباس المذكور أولا » .

الثانى : وهذا الراى نافع فى حالة اعتبار نشط وأنشط لغتين ذواتى معنيين اثنين — هو أن هذه الآية الكريمة تسير من الوجهة الصوتية وفق الآية الأولى فى السورة التى لها فى العادة قدرة على توجيه الصياغة فى الآية التالية أو الآية التالية أو الآيات وجهة معينة ، ما دام ان تلك الوجهة الصوتية تؤدى المعنى وتفى بالغرض على الوجه المطلوب . وأكبر دليل لنا على أن الحلية الصوتية فى القرآن الكريم أمر مرغوب فيه ، ما دام أن هذه الحلية تضفى على المعنى غلالة رقيقة شفافة من الأضواء والظلال ، هو ان الآيةالكريمة الأولى فى السورة،لكون المعنى واضحا تعدل عن طريقة التعبير التى تقول بها المعاجم . والنازعات اغراقا الى القول : والنازعات غرقا . ان الشىء ذاته يمكن أن يقال عن الآية الكريمة الثانية فى السورة « والناشطات نشطا » التى كان العدول فيها شاملا لكل من اسم الفاعل والمصدر . وفى الامكان أن نسجل الطريقة التى تقول بها المعاجم فى الآيتين الكريمتين ، وأن نقارن بين طريقة المعاجم هذه ، وبين الصياغة فى الآيتين الكريمتين ، كى نتبين الكسب الجمالى فى الآيات والخسارة الجمالية فى حالة تطبيقنا لما تقول المعاجم تطبيقا أعمى . وهذه هى طريقة المعاجم : والنازعات اغراقا . والمنشطات انشاطا . وتبدو الخسارة الجمالية فادحة لو واصلنا بعد ذلك تلاوة الآيات فى القسم . انا نتبين وقتئذ أن الهوة الصوتية سحيقة لا تطيقها الأذن الموسيقية بحال . وفى حالة تلاوة الآيات الكريمة : « والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا » فانا نتبين فى الانسياب الموسيقى للآيات ، مع وضوح المعنى ، خير مفسر للعدول، الجائز فى اللغة أصلا ، عن استعمال صيغة الى اخرى ، بحيث أنه يمكن القول : بما أن اكثر الآيات ، وفيها الآية الأولى ، تبدأ باسم فاعل من فعل ثلاثى مجرد ، وأن اكثرها قد أردف فيها اسم الفاعل بالمصدر ، لذا حسن ، مراعاة للمعنى الواضح ، وتحقيقا لموسيقى الكلام ، أن يكون اللجوء الى الصيغ الصوتية المنسجمة مع الطابع العام للآيات . وقد تجلى ذلك بوضوح فى الآية الأولى حيث تم العدول من « اغراقا » الى « غرقا » وفى الآية الثانية بوضوح أشد ، حيث تم العدول من اسم الفاعل والمصدر من الثلاثى المزيد الى اسم الفاعل والمصدر من الثلاثى المجرد .

ولنا فى حقيقة الأمر ، بشأن الآية الأولى فى السورة الكريمة كلام اضافى قال تعالى : « والنازعات غرقا » ذهب جمهور العلماء الى أن الآية الكريمة يراد بها الملائكة التى تنزع بشدة وعنف أرواح الكافرين وتقتلعها اقتلاعا . فكأن النزع جذب بشدة والنشط ، فى الآية الثانية فى السورة ، جذب برفق(٤) جاء فى اللسان(٥) . نزع الشىء ينزعه نزعا ، اقتلعه فاقتلع . وقولهم: فلان فى النزع اى فى قلع الحياة . يقال : فلان ينزع نزعا اذا كان فى السياق عند الموت . وسبق أن نبهنا الى أن الآية الكريمة عدلت عن المصدر اغراقا الى الاسم غرقا . وآن لنا أن نبين الكلام الاضافى بشأن الآية الكريمة .

كان فى امكان الآية الكريمة أن تستعمل فى عجزها مصدر الفعل الثلاثى الذى جاء منه اسم الفاعل فى صدرها فتقول : والنازعات نزعا . ولكن لما كان الاغراق فى النزع ، كما سنتبين من النصوص ، أبلغ فى التعبير عن المعنى المراد ، فى أولى آيات السورة الكريمة المكية ، التى تخاطب بالدرجة الأولى كفار مكة القساة القلوب الغلاظ الأفئدة ، لذا لجأت الآية الكريمة الى الاسم الذى هو اقدر على تبيين المعنى المراد ، مع اللجوء الى الصيغة التى تلبى استعداد النفس لتلقى نغمة المصدر الثلاثى . فكان القول « غرقا » على وزن « نزعا » وبذلك تحققت أشياء عدة . لقد أرضت الآية الكريمة العقل ، لأن الاغراق فى النزع أبلغ من النزع مجردا . كما أنها أشبعت النفس حيث أنها قد لبت داعى هذه النفس باستعمال القالب الصوتى الذى تتشوق اليه . وأخيرا هى هيأت النفس لتقبل العدول فى الآية التالية لاستعمال صيغتين صوتيتين قادرتين على اشباع النفس بجميل الصوت قدرتهما على ارضاء العقل بجليل المعنى .

فما معنى الاغراق فى النزع ؟ جاء فى

(١) اللسان « نشط » .
(٢) البحر المحيط ٤١٧/٨ .
(٣) ص ٦٦٨٣ .
(٤) أنظر تفسير القرطبى ص ٦٦٨٣ .
(٥) « نزع » .

اللسان(١) : « واغرق النبل وغرقه بلغ به غاية المد فى القوس . واغرق النازع فى القوس اى استوفى مدها . والاستغراق الاستيعاب . واغرق فى الشيء جاوز الحد واصله من نزع السهم . وفى التنزيل . والنازعات غرقا . قال الفراء : ذكر انها الملائكة وان النزع نزع الانفس من صدور الكفار . وهو قولك : والنازعات اغراقا كما يغرق النازع فى القوس . قال الازهرى : الغرق اسم اقيم مقام المصدر الحقيقى من اغرقت اغراقا . ابن شميل ، يقال : نزع فى قوسه فأغرق » .

مما سبق يتضح ان حرصنا على ان نبدأ فى تفسير هذه المجموعة من الآيات ، من أوضح النقاط ، قد اقتضى ان نبدأ من آخر آيات القسم. وقد فرض علينا الترابط المعنوى بين الآيات أن نأخذ فى السير الى الوراء ، حتى انتهينا الى اولى آيات القسم . وقد خرجنا بنتيجة مهمة هى ان رأى جمهور العلماء بشأن هذه الآيات هو الراجح، حيث أنها كلها تتحدث عن الملائكة ، تلك الأجسام النورانية التى لا تعصى الله تعالى وتفعل ما تؤمر به . ومن مظاهر ذلك انها تغرق فى نزع أرواح الكافرين ولا تكتفى بنزعها نزعا ، واقتلاعها اقتلاعا ، وانها تستل أرواح المؤمنين برفق . ان كون النزع جذبا بشدة ، ومن نصيب الكافرين . وكون النشط جذبا برفق ، ومن نصيب المتقين ، يتمشى مع المعنى الذى توحى به لفظة المثانى فى قوله تعالى(٢) : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد » بمعنى أن القرآن الكريم يتحدث عن الشيء وضده ، عن المعنى والذى يقابله بعد ذلك وهكذا .

ومن مظاهر فعل الملائكة ما تؤمر به انها تسبح فى نزولها وصعودها سبحا . متصرفة بأمره تعالى فى مجيئها وذهابها . وانها تسبق الى الايمان والتصديق به ، أو أنها تسبق بنى آدم بالخير والعمل الصالح . ومن الجائز أن يكون المعنى ، والله تعالى أعلم ، مرتبطا بالآية السابقة ومبنيا عليه من كونها فى سباحتها نزولا وصعودا بأمر ربها تسبق الى تنفيذ ما تؤمر به . ومن مظاهر فعل الملائكة ، فى ضوء ما أشارت اليه آخر آيات القسم ، أنها تدبر بأمره عز وجل ، الأمر من السماء الى الأرض . وروى عطاء عن ابن عباس : فالمدبرات أمرا ، الملائكة ، وكلت بتدبير أحوال الأرض فى الرياح والأمطار وغير ذلك(٣) جبريل للوحى . وميكائيل للمطر . واسرافيل للنفخ فى الصور . وعزرائيل لقبض الأرواح(٤).

والمختار فى جواب القسم أن يكون محذوفا وتقديره : لتبعثن لدلالة ما بعده عليه ، قاله الفراء(٥) .

وفى امكاننا ، بشأن هذا القسم ، أن نسأل سؤالا أخيرا هو : لماذا ابتدأ بعض الآيات بالواو وبعضها بالفاء وحيث انا عرفنا أن الآية الأولى بدأت بواو القسم ، فمعنى هذا أن السؤال يريد أن يعرف الجواب عن اختصاص آيتين بعد ذلك بواو العطف وآيتين بفائه . ولا يخفى أن مجيء كل من الواو والفاء لحكمة . ومن الجائز أن نقول فى محاولتنا المشاركة لازالة ستار هذه الحكمة : اننا لو تأملنا المعانى التى تعرض آيات القسم الخمس ، لانتهينا الى أن بعض هذه المعانى كأنه قائم برأسه . وبعضها مرتبط بسابقه ومبنى عليه . فلو أخذنا طريقة نزع الملائكة أرواح الكافرين ، التى أشارت اليها الآية الأولى، لتبينا انها غير طريقة سل الملائكة أرواح المؤمنين ، مع أن العملية أساسا شيء واحد . والشيء نفسه يقال عن سباحة الملائكة من السماء ومن الأرض نزولا وصعودا . انها عملية متميزة عن العمليتين السابقتين . قال تعالى : « والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا » . أما السبق فى الآية الرابعة والتدبير فى الآية الخامسة ، فان الارتباط بين هذه العمليات قوى ، بمثابة سلسلة تتألف من ثلاث حلقات . الأولى وهى السباحة بمثابة السبب والوسيلة . والثانية وهى السبق . بمثابة الطريقة التى يتم بها الاستفادة من استخدام السبب والوسيلة ، دليلا على الاجتهاد التام والطاعة المطلقة والثالثة وهى التدبير ، بمثابة الهدف والغاية .

ان مجيء الواو هنالك اشعر بتميز المرحلة الثانية عن الأولى والثالثة عن الأوليين . أما عملية السبق ، فانها لما كانت ، فى ضوء قول الجرجانى السابق ، مرتبطة بعملية السباحة . ولما كانت عملية التدبير مرتبطة بالعمليتين السابقتين ، لهذا جاءت الفاء دليلا على هذا الترابط المعنوى وعلى التوالى الزمنى ايضا لأن الفاء ، كما هو معروف تدل على الترتيب مع التعقيب . وهكذا يتبين انه حينما كانت حبات المعنى المترابط ، لصدوره من جهة واحدة ، جائزة الاستقلال جاءت الواو المشعرة بذلك الجواز . وحينما كانت حبات المعنى جائزة الالتحام جاءت الفاء المشعرة بذلك الالتحام . والله تعالى أعلم بالمراد .

---

(١) غرق .
(٢) الزمر : ٢٣ .
(٣) تفسير القرطبى ص ٦٩٨٥ .
(٤) البحر المحيط ٤١٩/٨ .
(٥) البحر المحيط ٤٢٠/٨ ، والجلالين وانظر تفسير الطبرى ٢١/٣٠ .